الدراسة الأولى

الانحراف والتطرف الفكري

تعريفه، أسبابه ودوافعه، آثاره وأبعاده، وسبل القضاء عليه

أحمد مبارك سالم

نحن في المجتمع البحريني جزء من الخليج العربي الذي عانت دوله من ويلات الإرهاب إلا أن آثاره وأبعاده لم تؤثر في واقعنا ولله الحمد، إلا أن ذلك يستوقفنا باعتبار أن تداعيات هذه الظاهرة تدور في الفلك الذي نعيش فيه، ولو اتخذنا موقفا سلبيّا تجاه ذلك، فإن هذا الموقف سيترتب عليه استشراء للظاهرة في بلادنا، بل لا بد علينا أن نقف على التجارب في الدول التي عانت من ويلاته لنتقن التعامل مع هذه الظاهرة الممقوتة انطلاقا من واجبنا الديني والوطني الذي يحتّم علينا ذلك، ونقف في هذا الفصل على ما يقرّب لنا وجهة النظر لظاهرة التطرّف الفكري أو الإرهاب لتتكوّن لدينا صورة عامّة عن الظاهرة.

أولا: تعريفه

الانحراف لغة: هو الميل والعدول والمجانبة.

واصطلاحا: هو الابتعاد عن المسار المحدد.

- أو هو انتهاك لقواعد ومعايير المجتمع، ووصمة تلصق بالأفعال أو الأفراد المبتعدين عن طريق الجماعات المستقيمة داخل المجتمع.
- هو انتهاك للقواعد يتميّز بدرجة كافية من الخروج على حدود التسامح العام في المجتمع.

أما تعريفه في الشريعة الغراء فهو: مجانبة الفطرة السليمة، واتباع الطريق الخطأ المنهي عنه دينيا، أو الخضوع والاستسلام للطبيعة الإنسانية دون قيود.

والشخصية المنحرفة في نظر الشارع المقدّس هي التي يقوم صاحبها بعمل يفسد النظام ويحول دون تطبيقه على واقع الحياة، مما يؤدي إلى إلحاق الضرر بالمصلحة الفردية أو الجماعية أو كليهما.(1)

ثانيا: أسبابه ودوافعه

إن من يدرس المرحلة الفكرية والحضارية المتأخّرة التي عايشتها الأمة الإسلامية يجد تخلّفا في الفكر، والوعي، والثقافة، كما يجد حالة من الانحراف الفكري بسبب بعد الأمة عن ثقافتها وحضارتها.

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center

ولكي تعالج هذه الظاهرة الخطيرة، والوضعية المنحرفة عن الإسلام لا بد من السعي نحو تشخيص الداء لمعرفة الأسباب الكامنة وراء تولّد هذا الانحراف والتخلّف الفكري المروّع، والذي تحوّل إلى صراع فكري بين أبناء الأمّة الإسلامية، ومن يحاول تقصّي هذه الأسباب التي أدّت إلى ذلك يجد أبرزها متمثّلة في:

1. الجهل بالإسلام: وهو من الأسباب الأساسية للانحراف الفكري، والضياع الثقافي عند المسلمين، وينتج عن هذا الجهل العام بالإسلام فقدان الحاجة الفكرية والعملية التي يمكن من خلالها معالجة المشاكل والقضايا الحضارية المستجدة في عالم الإنسان، وسبب هذا الجهل هو التخلّف الذي عاشه المسلمون ردحا من الزمان(2)، والذي أدى إلى ضعف في نقطة الارتكاز لدى الشعوب الإسلامية، والتي يتمكّن المجتمع المسلم من خلالها من الانطلاق في عالم المتغيرات بثبات ودون انكسار وانحراف.
2. الفراغ الفكري، والتوقّف عن الإبداع والإنتاج : وهو الذي يسدّ الحاجات المعاصرة للفكر الإنساني، وعدم الاهتمام بشؤون الثقافة والمعرفة ، وصدّ التيّارات الفكرية المادّيـــة التي غزت البلاد الإسلامية، وعدم التطوير للدراسات الفقهية والأصولية والإبقاء على شكلها التقليدي، دون أن ينظر في دراستها وتدريسها، وبحوثها وموضوعاتها إلى ما يستجد من حاجات جديدة للفكر، والثقافة، والحياة العلمية.(3)

3. الافتقار إلى وجود مرجعيات دينية موثوقة: إن الناظر إلى حال الشباب اليوم يجده تائهًا في فراغ فكري لا تملؤه مرجعيات دينية يمكن لهم أن يرجعوا إليها، وقد أدى هذا الخلو في الساحة من هذه المرجعيات إلى بروز بعض الجهلة الذي يحكّمون فهمهم للواقع عن طريق أهوائهم وجهلهم، ويعملون على تسخير هؤلاء الشباب لتحقيق أهدافهم الهدّامة، فينتج عن ذلك تأسيس خاطئ لعقول الشباب، وهذا ما يجرفهم نحو الضياع في متاهات التطرّف الفكري، والذي يولّد هذه التداعيات الخطيرة التي نعاني منها اليوم.
4. فراغ الشباب وصعوبة المعيشة: وهذا يجعلهم يكرهون المجتمع، ويحاولون أن يضرّوه بأي وسيلة؛ وذلك لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وكره من أساء إليـــها(4)، وقد يولّد هذا الفراغ نوعا من الإحباط لجيل الشباب، وهو ما يؤدّي به إلى الابتعاد عن جادّة الصواب، والعمل على ملء هذا الفراغ بأي شيء، وفي النهاية إلى بروز بعض الفئات المنحرفة الضالّة التي تعتبر خطرا على نفسها، ومجتمعها، وأمتها.
5. ضعف تعلّق الشباب بأوطانهم: فليس هناك ما يزيد من تعلّق الشباب بأوطانهم وأمتهم، وما يفكّرون فيه فقط هو الحياة المادّية البحتة، والتي تؤدّي إلى قطع أي تعلّق بالوطن، وبالتالي ينعدم الولاء، بل وينقطع نهائيا، فلا يكون الوطن إلا أرض تسكن، وحياة تقضى فيها، لا بل قد يتفاقم الأمر ويصل إلى كره لهذا الوطن ورغبة في الانتقام منه، ورفض لأي واقع يؤدّي إلى تغييره وتطويره، وكل ذلك راجع إلى فقدان التربية الوطنية السليمة.
6. عدم وجود متابعة من مؤسسات الدولة المسئولة لهذه الظاهرة: إن تولّد مثل هذه الظواهر في المجتمعات الخليجية لم يحدث بين يوم وليلة، بل كان نتيجة تراكمات تكونت في فترات زمنية متباعدة، وإن ما نعانيه وللأسف في المجتمعات الخليجية هو وضع السبل الكفيلة بالقضاء على أي مشكلة لا يكون إلا بعد وقوعها، لا وبعد استشرائها كذلك، وتجدها عندها تتحرك نحو ذلك. تتولّد عن هذه المشكلة مشكلات أخرى لا تستطيع التعامل معها بطريقة سريعة؛ ولا شك أن ذلك يرجع إلى أن الاستعجال لا يجعل السلطات تقوم بوضع دراسات علمية سليمة لمقاومة مثل هذه

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center

الظاهرة ، فتتفاقم المشكلة بحيث لا يصبح القضاء عليها بطريقة سليمة شيئًا صعبًا، لذلك كان ولا بد أن تسعى دول الخليج إلى متابعة هذا الشيء من البداية حتى يسهل التعامل معه بشكل سليم، وبالتالي يمكن القضاء على أي مشكلة تواجه المجتمع بسهولة وبدراسة علمية صحيحة، على غير ما نقوم به في الوقت الحالي، والذي جر علينا تداعيات ذات آثار جسيمة يصعب تداركها.

ومما لا شك فيه بأن التغيير الذي شهدته مملكة البحرين في المشروع الإصلاحي العظيم الذي نقلها نقلة نوعيّة في مجال الانفتاح والحرّية كان له دور كبير في خلق الاستقرار الاجتماعي في المجتمع البحريني، كما كان كفيلا بالحد من استشراء مثل هذه الظواهر الممقوتة، وقد كان بمثابة تنفيس للشعب، ومحاولة خلق مناخ أكثر انفتاحا يسهم بحد كبير في دعم العلاقة الإيجابيّة بين الحاكم والمحكوم، وبالتالي تكون ثمرة هذا الانفتاح القضاء على مختلف المظاهر السلبيّة بطريقة أكثر تحضّرا.

ثالثا: آثاره وأبعاده

إن ما نجده اليوم من وسائل متّخذة للقضاء على هذه الآثار ما هي إلا وسائل تخلو من أي تعامل حكيم، ولا شك أن ذلك سيجر علينا ويلات خطيرة على المدى البعيد، وما زال استشراء مثل هذه الظاهرة في استمرار، فبعد أن عانت منه المملكة العربية السعودية، نجده في دولة الكويت، ليبدأ بعد ذلك إلى قطر، وهكذا سيظل ينتشر حتى نتمكّن من وضع آلية علمية نقوم بدراستها من جميع الأبعاد والمستويات، ورغم أن فعل ذلك كان في وقت متأخّر، إلا أن القيام بمثل هذه الدراسة أصبح من الضرورة بمكان لمواجهة هذه الظاهرة التي أتت على أرواح البشر، وهتكت أمنهم، وجميعنا يعرف أن عنصر الأمن ضروري ومهم جدا في التنمية بشتى أنواعها.

لذا كان لا بد علينا أن نحد من مثل هذه الآثار الجسيمة التي أدّت إلى ضياع الشباب وانحرافهم، وجعلتهم يكرهون بناء أوطانهم والذود عنها وحمايتها، وأصبحوا أداة للتخريب والتدمير لمنشآته، والإزهاق والقتل لأرواحه.

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center

رابعا: سبل القضاء عليه.

إن دراستنا لأي مشكلة تواجهنا إنما يكون من أجل وضع الحلول المناسبة لمواجهتها، ولا شك أن مشكلة التطرّف الفكري لا بد أن نسعى قبل أن نواجهها أن نضع آليات للوقاية منها قبل القضاء عليها ومواجهتها؛ وذلك لأن آثارها الجسيمة تحتّم علينا أن نضع الآليات التي تحد من استشراء مثل هذه الظاهرة الممقوتة.

لقد انتشرت هذه الظاهرة بين فئة الشباب خاصة وأدّت إلى بروز أمور خطيرة أكبرها الإخلال بنعمة الأمن التي تعتبر من أهم النعم التي أنعم الله بها على جميع المخلوقات، ومن هنا كان لزاما علينا أن نضع السبل الكفيلة بالقضاء عليها، ومن أبرز هذه السبل:

1. إظهار وسطية الإسلام واعتداله وتوازنه: والعمل على ترسيخ الانتماء لدى الشباب لهذا الدين، وإشعارهم بالاعتزاز بهذه الوسطية، وهذا يعني الثبات على المنهج الحق، وعدم التحوّل عن ذلك، ولن يكون هذا الإظهار إلا عن طريق محاربة الغلو والتطرّف الممقوت، والعمل على القضاء عليه، والحد من انتشاره؛ وذلك لما يترتب عليه من تداعيات جسيمة أبرزها الانحراف الفكري.
2. معرفة الأفكار المنحرفة، وتحصين الشباب ضدّها: فلا بد من تبصيرهم بهذه الأفكار قبل وصولها إليهم منمّقة مزخرفة فيتأثّرون بها؛ لأن الفكر الهدّام ينتقل بسرعة كبيرة، ولا مجال لحجبه عن الناس بعد ذلك، فالحل ليس بمنع هذه الأفكار من الدخول إلى عقول الشباب، فهذا يجعلهم في مزيد من اللهفة لمعرفتها، إنما يكون الحل في تبصير الشباب بانحراف هذه الأفكار عندما تصل إليهم، فيعرفون بعد ذلك كيف يتعاملون معها.

كما يجب أن نعلم أن القلب والفكر محل لمن سبق إليه، ومن هنا فأهمية السبق ببيان خطورة هذا الفكر كفيل بأن يحمي الشباب من الفكر المنحرف بإذن الله، فمثلا أفكار أهل التكفير التي قادت إلى التفجير، وذلك بسبب رواج كتاب يسمى (الكواشف الجلية) الذي

يكفّر فيه الدولة السعودية، وقد اعترف من قام بعملية التفجير في العليا بأن ما اقترفه كان نتيجة لتأثره بأفكار هذا الكتاب المنحرفة، ورغم خطورة هذا الكتاب إلا أنه لا يوجد أي تحرّك لدحض أفكاره، ومناقشة شبهاته، مع أنها لا تصمد أمام النقد العلمي المدعّم بالدليل الواضح من المصادر الشرعية الموثوقة.

3. إتاحة الفرصة الكاملة للحوار الحر الرشيد داخل المجتمع الواحد: وتقويم الاعوجاج بالحجة والإقناع؛ وذلك لأن بديل التحاور هو تداول هذه الأفكار بطريقة سرّية غير موجّهة(5)، وهو بلا شك علاج غير ناجع، والحوار بلا شك ذو فوائد جمّة في إقناع العقول ثم إخراجها من بؤرة الفساد التي تعيش فيها، فها هو الإمام علي (كرّم الله وجهه) يبعث بابن عباس إلى الخوارج فيقوم باستخدام الحوار وسيلة لإقناعهم، ويقارع حجتهم بالحجّة، ويخاطبهم على قدر عقولهم، حتى اقتنع منهم الثلثين، ولنا في المراحل التي اتبعها الإمام معهم درسا نستفيد منه في التعامل مع خوارج العصر.

4. العمل على الوقاية منه قبل علاجه بتكاتف الجهود: إن مسئولية إصلاح المجتمع ليست مسؤولية العلماء والموجّهين خاصة، بل هي مسؤولية كل أفراد المجتمع، من علماء دين ومربّين، أساتذة وموظّفين، أكاديميين وغيرهم ... كما أن مهمّة الإصلاح ليست موجّهة للمنحرفين خاصة، بل هي للصالحين والمنحرفين، للخيريين والفاسدين، فللمنحرف الإصلاح والتقويم، وللصالح التشجيع والحث على التأثير وعدم التأثر، وهكذا ...

   ولابد من تكاتف الجهود وتوفّر النيات الصادقة من كل الذين يحبون الخير والصلاح لهذا المجتمع المسلم.(6)

5. التحذير من خطورة هذا المنهج وآثاره السلبية على المجتمع: خاصة على الشباب وإن كان على المدى البعيد، فعلى الرغم من وضوح خطوات هذا المنهج، فإن تنامي شبهته، وتلبيساته وتفسيراته الأهوائية، وآلياته الانتقائية، يرشحها للتأثير السيئ.

6. تحميل الفضائيات " العربية " مهمة القيام بمسئوليتها الشرعية والأخلاقية: وذلك بوصفها توجه برامجها إلى أمة ذات عقيدة، وهويّة، وقيم، فعليها أن تمنع إتاحة

الفرصة للمجدّفين بتهديد المعتقد، وإن لم تقم بواجبها الشرعي الأخلاقي، فلا أقل من أن تؤدي واجبها المهني البحت لإحترام قيم المجتمع السائدة من جهة، ومطالبة ضيوفها والمتحدثين من خلالها بتقديم الحجج على أقوالهم ... أليس هذا أضعف الإيمان وأقل شروط العدل والموضوعية؟!.(7)

ولا شك أن الإعلام ذو دور فعّال في التوجيه، ومن هنا جاء الدور الذي يقوم به في المجتمع ذا أهمية قصوى باعتباره يخاطب جميع العقول في المجتمع، ولا بد أن يراعى قبل تسخير هذه الأداة لتنوير عقول الشباب من اختيار كوادر ذات قدرات في الطرح السليم للمشاكل الفكرية ومناقشتها بواقعية، ثم العمل على إيجاد حلول علميّة منهجيّة للتمهيد لتطبيقها على الساحة من أجل القضاء على المشكلة، ولا شك أن هذه المسئولية تقع على الدولة باعتبار خضوع هذه الأداة تحت سلطتها.

7. <u>تبنّي مشروع مصالحة مع الشعب يعبّر عن الشفافية والانفتاحية معه:</u> لا شك أن الحاكم عندما ينعزل عن المجتمع ولا يفعّل له أي دور خاصّة في ظل عصر العولمة والانفتاح الذي يعيشه العالم هو بلا شك حاكم لا يدرك الأبعاد والآثار الجسيمة التي سيجنيها من وراء ذلك، وهو حدوث تداعيات اجتماعيّة وتأزّمات قد تحول دون العمل على النهوض بالأمّة، والعمل على الحفاظ على مكتسباتها بما يكفل رقيّها وتطوّرها.

وما إن حلّت الألفيّة الجديدة حتى راحت غالب الدول العربيّة تقوم بمشروعات إصلاحيّة في نظمها السياسيّة، وقد هبت رياح التغيير هذه على مملكة البحرين بتدشين المشروع الإصلاحي لجلالة الملك، والذي ساهم بشكل كبير في عقد المصالحة مع الشعب من أجل عمليّة البناء والنهوض بالأمة، والذي كان له الفضل الكبير في تأخّر استشراء الظاهرة ووصولها إلى مملكة البحرين، وهو وإن كان مشروع سياسي بالدرجة الأولى، إلا أنّه قضى على كثير من الأزمات الاجتماعيّة، والتأزّمات في العلاقات بين عناصر المجتمع.

لقد كان مشروع (ميثاق العمل الوطني) خطوة متقدّمة في مسيرة التحديث السياسي للدولة، والنظم، والمؤسسات بما يلبّي تطلّعات الشعب نحو مزيد من التطوّر والتقدّم الحضاري.

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center

لقد كان مشروع ميثاق العمل الوطني بلورة لرؤية مشتركة بالفكر، والنظر، وتبادل الرأي تحت سماء البحرين الحرّة، والتي باركها لحظة انطلاقها في شهر رمضان المبارك، وهذا ما أسبغ عليها وصف (وثيقة رمضان).

لقد كان هذا المشروع امتدادا للمسيرة التي قادها جلالة الملك، والتي كانت يده فيها ممدودة لكل بحريني ليساهم في هذا المشروع النهضوي المبارك، وقد أصبح هذا المشروع بمثابة تجديد وتحديث وطني شامل سيجعل إشراقه مستقبل التنمية في البلاد تزدهر على أوسع نطاق.

ونستعرض في هذا البحث بعد أن تناولنا الظاهرة بشكل إجمالي العناصر التي ينبغي أن تتكامل من أجل التفعيل الواقعي للحد من استشراء هذه الظاهرة، وإذا كان المشروع الإصلاحي له قصب السبق في الحد الكبير من هذه الظاهرة، فإن هذا لا يمنع أن نقدّم رؤية متكاملة يتبنّاها هذا المشروع الإصلاحي من أجل استيعاب أكثر للظاهرة، واتخاذ جميع السبل الكفيلة للحد من استشرائها.

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center

الهوامش

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center

1. www.annabaa.org
2. www.balagh.com
3. www.balagh.com
4. www.al-mostaqbal.com
5. www.minshawi.com
6. www.annabba.org
7. www.writers.alriyadh.com.sa

مركز الإعلام الأمني
Police Media Center